سلسلة «أبحاث فلسطينية» — رقم ٢٤

نحو فلسطين ديموقراطية

الدكتور محمد رشيد



منظمة التحرير الفلسطينية
مركز الابحاث

نحو فلسطين ديموقراطية

Dr. Mohammad Rasheed,
Towards a Democratic State in Palestine,
Palestine Essays No. 24,
Palestine Liberation Organization,
Research Center,
Colombani St. off Sadat Street,
Beirut, Lebanon.

سلسلة «أبحاث فلسطينية» — رقم ٢٤

نحو فلسطين ديموقراطية

الثورة الفلسطينية واليهود ازاء المجتمع
الديموقراطي واللاطائفي في فلسطين الغد

الدكتور محمد رشيد

منظمة التحرير الفلسطينية — مركز الأبحاث
بيروت
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠

اعتمدت هذه الدراسة على سلسلة من ثلاث مقالات
كانت قد ظهرت في مجلة « فتح » نصف الشهرية
بتواريخ ١٩٦٩/١١/٢٠ و ١٩٧٠/١/١ و١٩٧٠/١/١٩

محتويات الكتاب



مقدمة

ظهر هذا الكتيب لاول مرة في صورة ثلاث مقالات باللغة الانجليزية نشرت في مجلة « فتح » نصف الشهرية في نهاية عام ١٩٦٩ ولكن التفكير في موضوعه بدأ في الواقع بعد المؤتمر الثاني لنصرة الشعوب العربية الذي عقد في القاهرة في ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩ . ومنذ ذلك التاريخ والموضوع يناقش مع عشرات الاشخاص العرب والاجانب والعديد منهم ممن يدينون باليهودية .

ان فكرة الدولة الديموقراطية اللاطائفية التي طرحتها الثورة الفلسطينية تمثل الحل الانساني التقدمي الوحيد الذي ظهر في الساحة الفلسطينية منذ بدأ الغزو العنصري الصهيوني لها . وهو حل يعالج المشكلة من جذورها كما انه حل دائم وعادل وتقدمي .

وقد تعرضت فكرة الدولة الديموقراطية للمناقشة الحادة خلال عام ١٩٧٠ . فأما من الجانب العربي فيمكن القول ان معارضيها هم احد ثلاثة : ١ ـ اشخاص لا يعرفون ماهيتها ويهاجمونها بما لا تدعيه ، فمنهم من يتصور انها تعني الاستسلام لاسرائيل او التفاوض مع حكومتها العنصرية او انها هي الدولة العميلة المقترحة على الضفة الغربية وغزة او غير ذلك. ٢ ـ هناك اشخاص يهاجمون الفكرة لانهم لا يتصورون قيام اي دولة فلسطينية يعيش فيها يهود . وهؤلاء في الواقع قلة شوفينية لا تزال بعيدة عن فكر الثورة والثوار ، فثورة التحرير لا يمكن ان تتحول الى مجزرة انتقام ، ولا يمكن لها ذلك في عالم كعالمنا. ٣ ـ وجهات ثالثة ترفض قيام دولة فلسطينية على اساس انها تكريس للواقع القطري

الانفصالي في الوطن العربي (وهؤلاء في الغالب يتحدثون من بلاد او احزاب تمارس نشاطا قطريا انفصاليا في الواقع العربي الراهن).

والحقيقة ان فكرة الدولة الديموقراطية تمثل منطلقا نضاليا للقضية الفلسطينية لا شعارا سياسيا استسلاميا **فهي لا يمكن ان تنشا الا بالتحرير بل ونتيجة للتحرير لا بديلا عنه** ، وهي لا يمكن ان تقع على جزء من ارض فلسطين بل على التراب الفلسطيني كله . فبقاء قرية عربية صغيرة في ظل النظام الصهيوني العنصري مناف للفكرة من اساسها . وبالتالي فهي لا يمكن ان تنشأ بالتفاوض مع الكيان الصهيوني الاستعماري الذي تستهدف الثورة تحطيمه واقتلاعه من جذوره .

كما ان اقامة الدولة الفلسطينية لا يمكن ان يتم الا بثورة تحرير طليعتها فلسطينية وعمقها وامتدادها وعمودها الفقري عربي ، وبالتالي لا يمكن لهذه الدولة الديموقراطية الا ان تكون جزءا من الوطن العربي لا حيوانا غريبا عنه او اسرائيل جديدة تحت اسم جديد . ولكن الطبيعة المنطقية للاشياء تقتضي التركيز على ارض فلسطين ومستقبل فلسطين فهي الجزء السليب المغتصب من الوطن العربي ، ومن ثم التركيز في الوضع الجديد – بعد التحرير – على فلسطين الديموقراطية التقدمية اللاطائفية . ان الثورة الفلسطينية تضم الآن وفي كافة منظماتها مقاتلين عرب غير فلسطينيين وتتلقى دعما وسندا من الوطن العربي كله لدرجة يمكن معها القول بان الفلسطينية اصبحت هوية نضالية لا انتماء اقليميا .

واخيرا فاننا نرفض حتى مناقشة اولئك الشوفينيين الذين اقنعتهم الصهيونية العنصرية بقبول الطرح العنصري للقضية الفلسطينية. ان المقاومة الفلسطينية اليوم تشق بالبنادق والسواعد الطريق الى وطن انساني لا عنصري يمكن فيه للانسان الفلسطيني يهوديا كان ام مسيحيا او مسلما ان يعيش ويعمل ويتعبد ويمارس حياته في امن من كل تعصب او تفرقة او استغلال او استبداد .

وفي هذه الايام التي تطرح فيهـا الشعارات الاستسلامية تحت اسم الحلول السلمية لا يمكن لنا الا ان نقر بان قبول اي من الحلول والمبادرات التصفوية المعروضة كبديل للتحرير انمـا هـو تكريس للوجود العنصري التوسعي الصهيوني وتأخير لليوم الـذي يمكن فيه بناء الوطن الديموقراطي اللاطائفي . وذلك معناه انه لن يكون هناك سلام ولن تتحقق عدالة في وطننا الا بعد التحرير .

تمهيـــد

تهدف المقالات الثلاث الواردة ادناه الى البحث في مدلول ومضمون الفكرة الداعيــة الى اقامة دولــة فلسطينية على اساس ديموقراطي ولا طائفي ، مثلما ترمي الىتحليل هذه الفكرة وتزويدها بالشروح والايضاحات اللازمة .

ولا غرو فان هــذه الفكرة هي فكرة ثوريــة ، تنطوي على مضاعفات جدية وتنم عن شمول جذري . والواقع ان ثوريتها تصل بها الى درجة تجعل القلة من الناس الذين لا يلتزمون بموقف معين قادرة على تصديقها ، ناهيك بتاييدها والعمل في سبيلها .

ففي المقالة الاولى يجري طرح الفرضية النظرية الآتية : ان خلق فلسطين ديموقراطية ولا طائفية هو على حد سواء (١) امــر مرغوب فيه (٢) وقابل للتحقيق . وحالما يتم التدليل على صحــة هاتين الناحيتين، تصبحالفكرة قابلة للتصديق. لا سيما وانمسألة التصديق تحظى باهمية بالغة ، متى كنا ننشـد تحريك البواعث التي تحفز الناس لتأييد هذه الفكرة والعمل لاجلها ، بتقديم التضحيات في سبيل احلال السلام الدائم وتحقيق العدالة في فلسطين .

اما المقالةالثانية فانها تلقينظرة فاحصة على اليهود وموقفهم من فكرة الدولة الديموقراطية ، مثلما تطرح السؤال عما تراه قــد يحمل هؤلاء اليهود على تبديل موقفهم وتغيير رايهم .

وفي المقالةالثالثة والاخيرة ثمة محاولةلتقييم فكرة «فلسطين الجديدة » ، ولتعيين بعض ملامحها الرئيسية والبارزة في هــذه

المرحلة المبكرة من تطور الثورة الفلسطينية .

على ان المرجو لهذه المقالات هو اسهامها في بدء حوارمفتوح يرتكز الى الدرس الجدي لعناصر الموضوع . ان ثورتنا هي ثورة فتية وديناميه . وينبغي للثوار الشبان ان يتابعوا القتال والكفاح وان يستمروا في التعلّم ـ حتى النصر .

(١)

الثورة الفلسطينية واليهود

مضت سنة تقريبا منذ اعلنت حركة التحرير الوطني الفلسطيني ـ فتح ـ بصورة رسمية وللمرة الاولى ، برنامجا سياسيا يحدد بوضوح الهدف النهائي لكفاحها التحريري . فقد جاء في الاعلان المذكور ما يلي : « نحن نقاتل اليوم في سبيل اقامة دولة فلسطينية ديموقراطية يعيش فيها الفلسطينيون بكل طوائفهم ... مسلمين ومسيحيين ويهودا في مجتمع ديموقراطي تقدمي ، ويمارسون عباداتهم واعمالهم مثلما يتمتعون بحقوق متساوية » . ثم اضاف البيان قائلا : « ان ثورتنا الفلسطينية لتفتح قلبها وفكرها لكل بني الانسان الذين يريدون ان يعيشوا في المجتمع الفلسطيني الحر الديموقراطي وان يناضلوا في سبيله بصرف النظر عن اللون او الدين او العرق » (١) .

ان هذا البيان تكرر الادلاء به وشرحه وتوضيحه من جانب ممثلي منظمة فتح في جميع المؤتمرات واللقاءات الدولية والعالمية التي حضرها وفد عن فتح . ونقل العديد من الصحافيين على لسان الناطق الرسمي لمنظمة فتح ـ ابو عمار ـ قوله : « حالما نقهر العدو ونحرر فلسطين ، سوف نعمل على ايجاد وطن لنا

---

١ ـ انظر كلمة فتح في المؤتمر الثاني لنصرة الشعوب العربية (القاهرة) من ٢٥ الى ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩ . وراجع كتاب فتح السنوي (١٩٦٩) ، ص ١١١ .

كلنا » (٢) . كما صرح ابو اياد ، احد قادة فتح ، في مقابلة صحفية طويلة اجراها معه رئيس تحرير مجلة **الطليعة** المصرية بان الثـورة الفلسطينية تستنكر اضطهاد الانسان مثلمـا ترفض التمييز في مختلف صيغه واشكاله . وتابع يقـول بان فتح مستعدة لتقديم العون الى اليهود في كل مكان ، متى وحيث كان اليهود يتعرضون للاضطهاد على ايدي العنصريين . واستطـرد ابو اياد مؤكـدا استعداده لتزويد هؤلاء اليهود بالسلاح والقتال الى جانبهم (٣) .

ان هذا التصريح لم يكن مجرد زعم دعائي من نسج الخيال ، بل جرى وضعه موضع التنفيذ عندما قام طلاب ينتمون الى فتـح بحماية البروفسور الي لوبل فيمدينة فرانكفورتـ المانيهالغربيةـ ضد جماعات من المشاغبين الصهيونيين الالمان حاولت اعتـراض سبيله والاعتداء عليه في تموز (يوليو) ١٩٦٩ . ولقد قامت فتح بحماية جميع الاعضاء اليهود في منظمة « ماتزبن » بالمانيهالغربية، بعد ان اصبحت حياتهم مهددة بالخطر من جراء الحادثة نفسها .

فكرة ثورية جديدة

ان الصعوبة التي تكتنف تصديق ذلك مردها الى المرارة التي

٢ ــ هناك العديد من الاقوال والتصريحات التي ادلى بها ابو عمار حول هذا الموضوع بالذات ، ونقلتهـا الصحف العربيـة والاجنبية في حينه . ولقد قام مركز الابحاث بالاشتراك مع جمعية الخامس من حزيران بجمع تلـك الاقوال ونشرها في الانجليزية تحت العنوان التالي :
Aims of the Palestinian Resistance Movement With Regard to the Jews. (Beirut, 1970).
وانظر ايضا مجموعة الوثائق السياسية والاساسية التـي حررتها الآنسة ليلى قاضي ونشرها مركز الابحاث في :
Basic Political Documents of the Armed Palestinian Resistance Movement, (P.L.O. Research Center, Beirut, December 1969).

٣ ــ راجع مجلة **الطليعة** المصرية ، عدد حزيران (يونيو) ١٩٦٩ .

اوجدتها مأساة فلسطين منذ وعد بلفور والتغلغل الصهيوني في فلسطين ، مما ادى بدوره الى اقتلاع الفلسطينيين واجلائهم عن وطنهم لكي يتم خلق « دولة يهودية مقصورة على اليهود وحدهم » : اسرائيل .

فالدعوة لايجاد دولة فلسطين المنفتحة والجديدة ، بحيث يستظلها اليهود وغير اليهود على حد سواء تمثل تبدلا حاسما في الكفاح الفلسطيني ، لكنها لا تكاد تؤلف فكرة جديدة . ولقد سبق للفلسطينيين ان تقدموا من لجنة بيل عام ١٩٣٧ باقتراح مماثل يقضي بانشاء الدولة المنوه عنها . اما الفكرة القائلة بتعايش اليهود والمسلمين والمسيحيين في سلام ووئام تحت ظل وطن واحد فهي ايضا فكرة قديمة جدا . وفي ذلك يقول بيان فتح :

« ان هذه الدعوة ليست حلما بعيد المنال او وعدا مزيفا ، لان المسلمين والمسيحيين واليهود كانوا يعيشون بسلام دوما وابدا في الارض المقدسة . ولقد قام عرب فلسطين بتقديم الملجأ والملاذ الامين مثلما مدّوا يد المساعدة الى اليهود الهاربين من الاضطهاد في اوروبه المسيحية والى الارمن المسيحيين الهاربين من الاضطهاد في تركيه المسلمة . كما فتحوا ذراعيهم لاستقبال اليونانيين والقوقازيين والمالطيين وغيرهم من القادمين » .

فلا حاجة بنا للعودة الى تاريخ العصور الوسطى لكي نسهب في شرح هذه الفكرة وبسط مدلولاتها (٤) .

غير ان الجديد في ذلك كله هو الحقيقة التالية : الا وهي أن المشردين العرب من غير اليهود ، وهم الذين طردوا من ديارهم

---

٤ ـ انظر الكتاب السنوي لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) ١٩٦٩ ، ص ١١١ ، حيث جاء في الكلمة الملقاة أمام المؤتمر العالمي لنصرة الشعوب العربية ما يلي : «ولطالما عاش شعبنا مع اليهود واحتضنهم من الاضطهاد الاوروبي ، تماما كما رحب شعبنا بطوائف اخرى مثل الارمن حين تعرضوا الى اضطهاد تركيه الاسلامية » .

وحل محلهم اليهود في فلسطين ، ما زالوا قادرين — بينما هم يحملون بنادقهم ويقاتلون في سبيل ارضهم ولاجل وجودهم بالذات — على اطلاق الدعوة لاقامة وطن جديد يجمع تحت سقفه الضحايا السابقين والذين اعتدوا عليهم واضطهدوهم .

الفلسطينيون المشردون

كان الخروج عام ١٩٤٨ صدمة مذهلة بالنسبة للفلسطينيين. فقد جرى ترويع امة بأسرها ، تضم اكثر من مليون نسمة يقطنون في وطنهم ، عن سابق تصور وتصميم ، واقتلعوا من ديارهم . وطردوا خارجا عن وطنهم ، الى بحر من الرمال يحيط به ، خلال فترة لا تتجاوز بضعة شهور . على ان حقيقة كون العديد من الفلسطينيين يعرفون النوايا الصهيونية وتساورهم الشكوك بصدد البريطانيين في اعدادهم العدة لترحيل عرب فلسطين في نهاية المطاف الى « بلدان العبور » ، لم تجعل الصدمة اخف وطأة واقل ذهولا وصعقا . ومن الصعب على المرء ان يعتقد بامكان حصول التشريد القسري لامة بأسرها في هذا القرن العشرين بالذات .

طيلة ثلاثين عاما تحت الانتداب البريطاني كان الفلسطينيون يعرفون من هو عدوهم الحقيقي . فالامبريالية البريطانية والاستعمار الصهيوني كانا يرتبطان بصلات وثيقة في اذهان الشعب . ونشبت ست ثورات دامية بين عامي ١٩١٩ و ١٩٣٩ . هذه الثورات كانت موجهة بشكل اساسي ضد المحتلين البريطانيين . ومهما يكن مدى التواطؤ البريطاني في مصير الفلسطينيين — وهو تواطؤ بعيد المدى — فان الارهابيين «اليهود» هم الذين طردوا الفلسطينيين من ديارهم . ان اقتلاعهم بواسطة المذابح ، من طراز مذبحة دير ياسين ، كان ملازما للدعوة التي نادى بها معذبوهم ومضطهدوهم في سبيل خلق « وطن يهودي مقصور على اليهود وحدهم » . كما اصبح المشردون في نظر مضطهديهم بمثابة « طابور خامس » يستحق الاقصاء والابعاد عن هذا الوطن ، وطنهم الاصلي . وفي غمرة البؤس والاذلال واليأس تعلم

الفلسطينيون كراهية اليهود فكرهوا كل شيء « يهودي » ، لا بل كل ما يمتّ بصلة الى عدوهم .

اليهود والصهيونيون

ثمة نفر قليل من القادة المثقفين ، الى جانب قسم كبير من الدعاة ، بذلوا جهدا عظيما في سبيل التمييز بين اليهود والصهيونيين . وتكرر القول التالي على السنتهم : « نحن لسنا من اعداء اليهود . بل نعادي الصهيونيين منهم فحسب . نحن من الساميين ، واليهود ابناء عمنا » . مثلما تجلى الادعاء في قولهم : « ان البعض من اصدقائنا الخلّص هم من اليهود ... » .

وزعموا في قولهم : « نحن ضد دولة اسرائيل » . لكن التمييز ضاع وفقد معناه وسط آلام « اللاجئين » وعذاباتهم ، وبعد ان اخبرهم الاسرائيليون بان جميع اليهود هم صهيونيون بلا مراء . فالضغوط اليهودية في الولايات المتحدة ، الى جانب الاموال اليهودية والمهاجرين اليهود : كلها كانت تعمل على ترسيخ اقدام عدوهم وتوطيد دعائمه . مما جعل آمالهم المعقودة على العودة المشرفة الى وطنهم تتضاءل الى درجة التلاشي . فلا عجب اذن ان تسود المرارة في النفوس ويسيطر الخوف عليها .

لقد اصبحت قراءة « بروتوكولات حكماء صهيون » شائعة بينهم ، ولقي الادب المعادي للسامية ، وهو الادب الذي قام بتطويره العنصريون الاوروبيون في ظروف مختلفة تمام الاختلاف عن ظروفهم — حيث كان اليهود بمثابة الضحايا آنذاك — رواجا منقطع النظير لديهم . ان هذه الموجة العارمة من المرارة والكراهية والضياع التام سرت عدواها الى غيرهم من العرب . وساعدت الضغوط الصهيونية والدعايات الرامية الى حمل الآلاف من اليهود العرب على مغادرة اوطانهم للالتحاق بصفوف العدو المحتل . ان الآلاف من هؤلاء اليهود كانوا سيبقون في ديارهم تحت ظل ظروف مغايرة ، وكان من المقدر لهم ان يستمروا في العيش حيث عاشوا طيلة مئات السنين بسلام ووئام مع جيرانهم .

الثورة : عصر جديد

بـدات منظمة فتح الثورة الفلسطينية في ١ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ ، بعد تسع سنوات من الاعداد السياسي . بيد ان العامين الاولين جرى تكريسهما لارساء دعائم « وجود » عسكري في الساحة الفلسطينية . امـا التجربة ـ الصدمة عام ١٩٦٧ والخروج الثاني فهي التي هزت كيان الفلسطينيين هزاً ودفعتهم الى الوقوف صفا واحدا وراء الثورة. ففي اعقاب الهزيمة الجديدة ومن اعماق اليأس والقنوط اشتعلت جذوة الامل الجديد . وحمل الفلسطيني بندقية لكي يهم بالدخول الى وطنه ويعود اليه. فاطلق النار على قوات عدوه وعلى سجانيه . وبرز لديه حسٌ جديد من العزة والكرامة الانسانية . ثم عادت اليه الثقة بالنفس مـع بروز الامل والعزة . وهكذا بعثت امة من جديد .

ان معركة الكرامة وغيرها من الانتصارات ، بالاضافـة الى التضحيات والشهداء والكفاح المتصاعد ، انمت لديه حسًا جديدا من الانتماء الى فلسطين . والثورة جلبت معها النضج للمقاتلين . قد يبدو الامر اشبه ما يكون بالمفارقة ، لكن الشعب الذي يقاتـل يصبح بمقدوره ان يكون اكثر تساهلا وتسامحا . فالعنف الذهني واللفظي غالبا ما يجيء ملازما للقصور واليأس .

اخذت تتكون نظرة جديدة الى العدو . واصبح هناك معنى للتمييز بين اليهودي والصهيوني . كما ادى الادراك بان الثأر ليس سببا كافيا لشن حرب تحريرية الى مزيد من تمحيص الاهـداف النهائية للثورة . واسهم العشرات من المثقفين الليبراليين اليهـود الذين يتوافدون من سائر انحاء العالم لفتح حوار مع الثورة في احداث المزيد من اعادة النظر والتفكير .

عقيدة جديدة

عكف القـادة الثوريون على البحـث والدرس الجدي في الموضوع ، وبرز تعلّم الحقائق القديمة من جديد . فاليهود ذاقوا الاضطهاد على ايدي المجرمين العنصريين تحت حكم النازية ، وهذا

ما حل بنا « نحن » في ظل الصهيونية . ولقد جرى اكتشاف العديد من المقارنات التي توحي بوجود التشابه والتوازي . فراح الثوريون يتساءلون : « كيف لنا ان نكره اليهود كيهود ؟ » و «كيف نقع في الفخ العنصري ذاته ؟ » .

ثم اجريت دراسة للتاريخ والفكر اليهودي . وتم التعرف الى المساهمات التي اسداها اليهود ، مثلما جرى تعريف المعضلات اليهودية . ان اكثرية اليهود الذين جاؤوا الى فلسطين كانوا يهربون من معسكرات الاعتقال النازية ، ولقد قيل لهم : انتم شعب بلا ارض ـ تذهبون الى ارض بلا شعب . وحالما يتم وصولهم الى فلسطين كانوا يقولون لهم بأن الفلسطينيين غادروا فلسطين بملء رغبتهم وبناء على اوامر تلقوها من الزعماء العرب كجزء من حركة دنيئة تهدف الى احداث مجزرة رهيبة ضد اليهود المتبقين هناك.

وعلاوة على ذلك ، اكتشفت الثورة بان الاجهزة الصهيونية كانت تخبر المهاجرين اليهود الجدد والمستوطنين القدامى بان عليهم ان يقاتلوا في سبيل البقاء على قيد الحياة ، وان البديل الوحيد مقابل « اسرائيل » التي تعيش في امن وسلامة هو مذبحة لابادتهم او في افضل الحالات سفينة صغيرة على وشك الغرق في عرض البحر المتوسط . حتى ان اليهود العرب ـ ويدعوهم الصهيونيون بـ « الشرقيين » ـ وهم الذين يعانون من التمييز ضدهم في اسرائيل على ايدي الاوليغاركية الصهيونية الاوروبية ، وجدوا انفسهم يقبلون هذه الحجة فكان عليهم ان يقاتلوا في سبيل ما اعتبروه مجرد بقائهم على قيد الحياة . ان مقاتلة الصهيونيين كشفت مواطن القوة والضعف في الشخصية « اليهودية » . فاليهود ليسوا « غولا » او سوبرمان ، وليسوا متحدرين من الجبابرة او الاقزام . وهنا اخذت تتشكل صورة انسانية جديدة لليهود. مثلما راح الثوار يقرأون امثال مارتن بوبر واسحق دويتشر والمر بيرغر وموشيه منوحين ويعيدون قراءاتهم ، وجميع هؤلاء من المفكرين الروحيين اليهود الذين يتصفون بنزعة انسانية .

الصورة الجديدة

ان الثائر الفلسطيني حرر نفسه من معظم تعصباته القديمة ورواسبه الماضية . والزائرون الاجانب تعتريهم الدهشة لدى اكتشاف هذا الامر في قواعد الفدائيين وفي معسكرات «الاشبال» بنوع خاص . فالثائر الفلسطيني على اتم استعداد للموت في سبيل تحرير فلسطين ، وهو لن يقبل عن ذلك بديلا ، مهما كان الثمن . لكنه يرسم صورة واضحة للعدو وللهدف النهائي. وعندما جاء عدد من الطلاب اليهود من اوروبه لقضاء قسم من عطلتهم الصيفية في احد معسكرات فتح بالاردن ، جرت معانقتهم اثناء الاستقبال كرفاق في النضال . ان فتح تتطلع الى ذلك اليوم الذي ينضم فيه بضعة آلاف من اليهود الى صفوف مقاتليها في سبيل تحرير فلسطين . ولو اخذنا الاتجاه الاخير للاحداث بعين الاعتبار ، فان هذا التطلع قد يتحقق بأسرع مما يحسبه الكثيرون من الناس .

الخطوة الاولى

لقد خطا الثوار الفلسطينيون اول خطوة نحو خلق فلسطين ديموقراطية ولا طائفية . وهناك تغيّر في المواقف يتم عن طريق اعادة التعلم . ان الفلسطينيين المشردين والمضطهدين طيلة تلك المدة اخذوا يعيدون تعريف اهدافهم وتحديد غاياتهم . وهم يعتبرون الهدف الرامي الى اقامة فلسطين جديدة تضمهم الى جانب المستوطنين اليهود الحاليين من الاهداف المرغوبة جدا . ولكي يصبح هذا الهدف قابلا للتحقيق ينبغي لنا القاء نظرة فاحصة على الطرف الآخر ، اي اليهود : كيف يشعرون ازاء هذا الهدف ؟ وما هي العوامل التي تؤثر في تغيير نظرتهم وموقفهم وتبديل تفكيرهم؟

(٢)

موقف اليهود من الفلسطينيين

ان كل محاولة لدراسة وتفسير المواقف والنظرات لدى جماعة من الناس سوف تعترضها حتما صعوبات جمة ، كما انها تتعرض لاتهامات التحامل والتحيز والتشويه . ونحن لا ندعي عصمة السقوط في هفوات من هذا القبيل ، لكننا سوف نسعى للتقليل من تأثيرها . ان المنحى الذي نسلكه سوف يقوم على استخدام الاستشهادات والاقوال المباشرة ـ الى جانب التوثيق ـ متى امكن ذلك. ولن نحاول هنا توسل الجدل الماركسي او الانماط السوسيولوجية البحتة . فالبواعث السياسية سوف تؤلف الاطار الاساسي لنظرتنا .

ثمة مشكلة اخيرة تقلق بال دراستنا هذه ، وهي التالية : ان معظم المواقف و « الصور » التي جرى درسها هي من صنيع الصهيونيين وتصميمهم ، قذفت بها اجهزتهم الدعائية . وربما لم تكن مقبولة من جانب جميع اليهود في العالم او لدى اكثريتهم . غير انه لا مندوحة لنا من الاعتراف بان الصهيونيين قد نجحوا الى حد كبير في احداث تطابق بين اليهودية والصهيونية واظهارهما كصنوين في اعين الاكثرية الساحقة من اليهود ، وبين يهود البلدان الغربية بنوع خاص . فالفظائع النازية والتهديدات الموجهة ضد اليهود في بلدان عديدة ساعدت الصهيونيين على ابقاء سيطرتهم على العقول اليهودية في كل مكان . وبدون الاموال اليهودية والاصوات التي تمارس نفوذا سياسيا في اماكن حساسة من العالم الى جانب التأييد الشامل والدعم الكاسح فان « اسرائيل »

لم تكن قادرة على البقاء . كما ان الاحتلال الامبريالي الصهيوني لم يستطع من الاستمرار . وفي التحليل النهائي للامور فان قـوة اليهودية العالمية ونفوذها الخاضعين للتلاعبالصهيوني هما السبب في استمـرار مأساة الفلسطينيين وفي اضطهادهم واخضاعهم وتشردهم . لذا يصبح من المهم ان نعرف كيف يشعر اليهـود ازاء الفلسطينيين ، وكيف ينظرون اليهم كشعب ، والى اي حد تعتبر هذه النظرة جوهريةبالنسبة للفعل الذيادىالى طرد الفلسطينيين من ديارهم ؟ والسؤال الاهم من ذلك هو التالي : هل يمكن تغيير هذه النظرة ، وكيف يتم التغيير ؟

كيف نظر الصهيونيون الى الفلسطينيين

كان الموقف الصهيوني الباكر حيـال الفلسطينيين ينطوي على تجاهلوجودهم بالذات. والعبارة الشهيرة التي اطلقها اسرائيل زانغويل عن اعطاء « ارض بلا شعب الى شعب بـدون ارض » تمثل على هذا الموقف اصدق تمثيل . اما حاييم وايزمان فقـد تفوه بعبارة اكثر غنى وتنوعا ، حيث قال : « ثمة بلد هناك يدعى فلسطين من قبيل الصدفة ، وهو بلد **بدون** شعب . ومـن جهة ثانية ، يوجد الشعب اليهودي ، وهذا الشعب لا وطن له . مـاذا نحتاج الى اكثر من ذلـك ، اذن ، لكي يتم تركيـب الجوهرة على الخاتم ، ويجري توحيد هذا الشعب مع وطنه ؟ » (٥) . ويلاحظ يوري آفنيري بان ثيودور هرتزل تناول في كتابه عـن « الدولة اليهودية » ـ وهو الكتاب الذي اطلق الحركة الصهيونية الحديثـة ـ موضوعات تتعلق بساعات العمل ومساكن العمال ، حتى انـه تطرق الى موضوع العلم الوطني ، لكنه لم يكن لديه ما يقوله عـن عرب فلسطين . فالعربي بالنسبة للصهيونيين كان اشبه بالرجل

---

٥ ـ انظر مقالة ابراهيم ابو لغد عـن « المواجهـة العربية ـ الاسرائيلية : بعض التعليقات حول المستقبل » في الكتاب التالي :

Selected Essays on the Palestine Question, (P. L. O. Research Center, Beirut, 1969).

غير المنظور. وعلى الصعيد النفسي لم يكن العربي موجودا (٦). بيد ان هذا الموقف سرعان ما تعذر الاخذ به . فاكتشف الصهيونيون ان فلسطين كانت بلدا مزدهرا بالنسبة للمقاييس السائدة يومذاك. فهي تزخر بالسكان الذين يقومون باعمالهم في حراثة الارض وزراعتها وسط سلام نسبي ، كما يؤدون قسطهم للمجتمع العربي الاوسع .

لقد حاول احد هاعام ، اليهودي الروسي والفيلسوف العبراني ، توجيه الاهتمام الى هذه الحقيقة في زمن مبكر يرجع تاريخه الى عام ١٨٩١ . فاعلن ان فلسطين ليست ارضا فارغة او خالية من السكان . ثم ادرك المشكلات التي ينطوي عليها ذلك (٧).

والواقع ان احد هاعام كتب في تقرير له بعد رحلة قام بها الى فلسطين عام ١٨٩١ ليقول بانه من الصعب العثور على ارض زراعية هناك لا تزال بدون حراثة .

وحين سمع الزعيم الصهيوني البارز ، ماكس نوردو، بوجود السكان العرب في فلسطين للمرة الاولى ، سارع الى مخاطبة هرتزل بقوله : « لم اكن اعلم ذلك ــ ولو صح الامر ، فاننا نرتكب ظلما اكيدا » (٨) .

ثمة تقارير عديدة ظهرت في اواخر القرن الماضي ومطلع هذا

---

٦ ــ انظر المقالة التي كتبها يوري آفنيري للعدد الخاص الذي اصدره جان بول سارتر من مجلته **« الازمنة الحديثة »** عن النزاع العربي ــ الاسرائيلي (حزيران، يونيو ، ١٩٦٧) :
Les Temps Modernes : Numéro Special sur «Le Conflit Israélo-Arabe».
وهناك مراجعة لهذا العدد كتبها I. F. Stone ونشرتها الصحيفة التالية :
«For a New Approach to the Israeli-Arab Conflict» in The New York Times Review of Books, August 3, 1967.

٧ ــ راجع مقالة ستون ، **المصدر نفسه** .

٨ ــ **المصدر نفسه** .

القرن تثبت صحة هذه الحقيقة بما فيه الكفاية . فقد كان لدى عرب فلسطين صناعة حمضيات مزدهرة . واشتهر البرتقال الذي يقطفونه من بساتينهم بحجمه الخارق للمألوف ، حتى انه استرعى الانتباه في فترة مبكرة تعود الى القرن الثامن عشر (٩) .

وفي زمن لاحق اخذ « صانعو الصور » بين الصهيونيين يلتفتون الى موضوع ثان ، لكي يحظى هذا الموضوع بالقبول لدى عدد كبير من اليهود والمسيحيين على حد سواء في كل من اوروبه واميركه ، ويصبح بالتالي قوة رئيسية في تكوين موقف اليهود ازاء الفلسطينيين . فقد راوا في الفلسطينيين اولئك « الاهالي » او « السكان » الذين يصادف سكناهم في فلسطين . واعتبروا هؤلاء الاناس تحت درجة السوية ؛ اذ تعوزهم المدنية والكيان القومي . هذه الصورة جرى ادماجها في وعد بلفور الشائن . حيث جاء وصف الفلسطينيين باعتبارهم من السكان الذين يملكون الحقوق الدينية او المدنية دون اية حقوق سياسية . فلم يكونوا شعبا بالمعنى الحقيقي والواقعي .

ثم اضيف فيما بعد طابع آخر على سبيل الحط من قدر العرب والاساءة الى كيانهم . فاصبح هؤلاء « السكان » من البدو الذين يرتحلون من مكان الى آخر ويغيرون على ارض فلسطين

---

٩ – انظر **Achad Ha-am - Am Scheidewege, Berlin, 1923.**
وانظر ايضا تقرير سمبسون عن الهجرة واستيطان الاراضي وتطويرها
John Hope Simpson : Report on Immigration, Land Settlement and Development (Command Paper 3686, 1930), pp. 64, 66.

وايضا :
Protokoll des XII Zionisten Kongresses (Berlin, 1922); p. 304.
كما يرد ذكر العديد من المصادر الاخرى في الدراسة التالية:
L.M.C. van der Hoever Leonhard : « Het Palestina-Vraagstuk in Zijn ware gedaante» Libertas, (Holland), Lustrum Number, 1960.

الخصبة ناشرين الخراب والدمار فوق ارض اللبن والعسل ، وعاملين فيها سلبا ونهبا (١٠) . بينما جرى اعتبار مجيء اليهود الاوروبيين الى فلسطين بمثابة حلول النعمة والبركة بالفعل . ومما قيل في ذلك : « ان اليهودي الاوروبي يحمل معه مدنية متفوقة ، ويملك اسباب التكنولوجيا الاوروبية ، كما يتمتع بوضع يسمح له باغداق نعم تلك المدنية على سكان فلسطين البدو » (١١) . حتى انهم توسموا في مجيء اليهود الى فلسطين اقدامهم على تأدية « رسالة تمدينية » هناك .

ولقد ابرز لنا مؤسس الصهيونية ، هرتزل ، في يومياته الشهيرة (١٢) صورة حية لهذا الفلسطيني الاهلي ، كما وصف المواقف التي تستتبع عن هذه الصورة . فهو يقول ما يلي :

« ينبغي لنا ان نعمد الى نزع الملكية الخاصة بلطف عن الاراضي المعينة لنا . سوف نحاول تسريب السكان المعدمين عبر الحدود بتأمين وظائف العمل لهم في البلدان الانتقالية . على ان نسد في وجوههم كل مجالات العمل والاستخدام في بلادنا . ان مثل هذه العملية يجب ان يتم تنفيذها بلطف واحتراس » (١٣).

ثم يتابع هرتزل قائلا :

« اذا انتقلنا الى منطقة تضم حيوانات متوحشة لم يألفها اليهود ــ كالافاعي الكبيرة السامة وغير ذلك ــ

---

١٠ ــ انظر مقالةابراهيمابو لغد، **المصدر السابق**، ص٦٣ و ٦٤ .

١١ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٦٤ ، وانظر ايضا :

The Complete Diaries of Theodor Herzl, Vols. I and II, Published by the Theodor Herzl Foundation, (Thomas Yoseloff, New York, 1960).

وسوف ترد الاشارة اليها فيما بعد تحت «Diaries» .

١٢ ــ **Diaries** (**يوميات هرتزل**) .

١٣ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٨٨ و ٨٩ ــ ٩٠ (حيث يوجد النص الكامل للفقرة) .

سوف استعين بالاهالي ، قبل اعطائهم فرص العمل في بلدان الانتقال ، للقضاء على هذه الحيوانات واستئصال شأفتها . على ان تمنح المكافآت المرتفعة لمن يأتي بجلد الافعى او بيوضها وفروخها » (١٤) .

ويمضي هرتزل في يومياته ليتحدث عن المهام التي سوف يوكلها الى الاهلين قبل تسريبهم عبر الحدود. فهو ينوي استخدامهم في تجفيف المستنقعات لانهم يملكون مناعة ضد الاوبئة السارية(١٥).

ان القارىء العصري قد تنتابه الدهشة والغرابة لدى سماعه بكل هذه الامور الصادرة عن انسان يهودي ، وعن رجل يعرف معنى الآلام التي يقاسيها الشعب بسبب التمييز العنصري . لكن هرتزل بالطبع هو ذلك الاستعماري الاوروبي والامبريالي الالماني بقدر ما هو يهودي . وهرتزل بالذات يصرح بما يلي :

« سوف ينقل اليهود معهم الى الشرق عنصر الثقافة الالمانية . والدليل على ذلك : ان الكتّاب الالمان — من اصل يهودي — هم زعماء الحركة الصهيونية. فالالمانية لغة المؤتمر الصهيوني . والاكثرية الساحقة لليهود تؤلف جزءا من الثقافة الالمانية » .

ثم يتابع قوله :

« لو شاء الله ان نعود الى وطننا التاريخي ، فان الرغبة تحدونا للعودة كممثلين للمدنية الغربية : نحمل معنا النظافة والنظام والعادات الراقية عن الغرب الى هذه الزاوية المنكوبة والبائسة من الشرق » (١٦) .

---

١٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٩٨ .

١٥ — **المصدر نفسه** .

١٦ — **يوميات هرتزل** ، المجلد الثاني ، ص ٧١٩ . (انظر ايضا : اسعد رزّوق ، **الصهيونية وحقوق الانسان العربي** ، الجزء الاول (سلسلة دراسات فلسطينية — ٤٧ ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٨) ، ص ٤٩ .

صورة الزعامة الفلسطينية

ان الفلسطينيين لم تنطبق اوصافهم على هذه الصورة التي صنعتها الصهيونية لهم ، وسرعان ما اخذ العالم يسمع عن الانتفاضات الفلسطينية والنضال الفلسطيني . ازاء هذا التحول في مجرى الاحداث عمد صانعو الصورة بين الصهيونيين الى استنباط جواب سهل : فالفلسطينيون هم من الاهالي المسالمين والهادئين اساسا ، لولا تعرّضهم لنفوذ المحرضين وسطوة المشاغبين ودعاة التعصب الأعمى . والنزاعات « العشائرية » بين الأسر والعائلات الغنية هي السبب الكامن وراء الشغب والتحريض . كما ان مثل هذه النزاعات سوف يؤدي الى الحاق الضرر والأذى بعامة الشعب ويجعلهم يدفعون الثمن . فالصورة التي يرسمها موريس صموئيل للزعماء الفلسطينيين تبرزهم بمثابة « جيش عرمرم من الكسالى المتسكعين وأسياد فن البخشيش والطفيليين الذين يعيشون على ثرثرة المقاهي ، وعلى عاتق هؤلاء تقع المسؤولية الرئيسية لكل ما يسود الجو الراهن من توتر وتقلب » (١٧) . ان امثال هؤلاء الزعماء يحرضون الفلسطينيين ويضللونهم بواسطة « التصريحات الكاذبة » او اللفقة. وكل نشاط سياسي في فلسطين لا يمكنه ان يأخذ زمام مبادرته بين « الاهالي » الذين لا يفقهون شيئا من ذلك، بل هو يصدر عن «المحرضين» او «المشاغبين» (١٨).

الموقف من « اللاجئين » الفلسطينيين

تحقق استعمار فلسطين واقتلاع الفلسطينيين بصورة جزئية في عام ١٩٤٨ ، وجرى اتمام العملية بشقيها عام ١٩٦٧ .

---

١٧ ــ راجع مقالة موريس صموئيل التالية :
Maurice Samuel : «Foundations of Peace» : «The Solution of the Arab Must be on the Level of Zionist Idealism».
وقد استشهد بهذه العبارة كتاب **الصهيونية وحقوق الانسان العربي**، الجزء الثاني (رقم٤٨) ، ص ١٠٥ــ١٠٦ .

١٨ ــ **المصدر نفسه** .

فتحققت بذلك جميع المخططات والاحلام الصهيونية . واقيم الوطن اليهودي في فلسطين ، بينما اصبح السكان الاصليون بمثابة لاجئين ومشردين ، وحرموا من وطنهم وحقوقهم القومية . ان هذه المأساة الانسانية الكبرى والتي انزلت الشقاء والبؤس والاذلال واليأس بمليون من الناس ، وبنصف مليون اضافي فيما بعد ، كانت لطخة سوداء ، لا بل جريمة عن سابق تصور وتصميم .

بيد ان استنباط الصور وتلفيقها كان على استعداد لمواجهة الوضع الجديد : فالفلسطينيون « قد باعوا اراضيهم لليهود ثم هربوا من البلاد لكي يفسحوا المجال امام مذبحة لابادة جميع اليهود على يد الجيوش العربية » . وها قد عاود الاهلون الغادرون سيرتهم السابقة ! انهم رفضوا العيش بسلام مع رسل المدنية الاوروبيين . وراحوا يعيرون اذنا صاغية من جديد الى المحرضين المتعطشين لاحداث حمام دم يهودي. ان الفلسطينيين لا يستحقون حتى العطف في شقائهم وتشردهم . بل يجب استنزال اللعنات عليهم والازدراء بهم . انهم لا يستحقون فلسطين . ويمكن استيعابهم في البلدان العربية . اما حنينهم الى فلسطين فلا يعدو كونه اشبه بالظاهرة المثيرة للحزن او الرعونة والهوس والتضليل. ليس لديهم ما يحنون اليه . ان مخيماتهم الحالية للنازحين هي على الارجح افضل من بيوتهم البالية في فلسطين . لقد عاشوا تحت الخيام آنذاك ، وهم يعيشون تحت الخيام الآن ! فلماذا يرفعون اصواتهم بالشكوى والتذمر ؟ وعلى اية حال ، فهم يخوضون « سباقا في العدد » مع الامم المتحدة ، ويزوّرون السجلات لزيادة عددهم كيما يتسنى لهم الاستيلاء على المزيد من اعاشات الامم المتحدة . انهم فريسة الغوغائيين العرب ومثيري الشغب . حيث يستخدمهم هؤلاء كبيدق لتحقيق مآربهم في لعبة سياسية .

انهم لا يستطيعون العودة الى فلسطين الصهيونية . فقد تم تمدين البلاد ولم تعد ملكا لهم على الاطلاق . وحتى لو عاد بعضهم، فان هؤلاء سوف يشكلون طابورا خامسا وعناصر شغب على

استعداد للتواطؤ مع العدو والتعاون معه . وعلى كل حال ، فقد جرت مبادلتهم او مقايضتهم لقاء اليهود « الشرقيين » الذين كانوا في البلاد العربية .

ان استنباط هذه الصور على اساس افتراض « الرسالة التمدينية » وطمس معالم الشخصية الفلسطينية وتشويه سمعتها هو عملية ما زالت قيد الاستمرار حتى الوقت الحاضر . فالثوار الفلسطينيون يعتبرون « مخربين » و « ارهابيين » . وعلى اية حال، فان الفلسطينيين عاجزون عن ابداء مشاعر الوطنية والشجاعة والنبل او الاتيان باعمال تنم عن ذلك . انهم لا يصلحون الا للغدر والمؤامرات الدنيئة .

ليس هنا مجال دحض هذه الافتراءات و « الآراء » عن الفلسطينيين . فالبحوث العلمية اظهرت بان الفلسطينيين لم يبيعوا بلادهم . وفي عام ١٩٤٨ كان اليهود يملكون اقل من ٦ ٪ من الاراضي ، بينما حصلوا على ما يقل عن ١ ٪ منها عبر الفلسطينيين فقط (١٩) . ان الفلسطينيين لم يتركوا وطنهم بناء على أوامر صدرت لهم من الزعماء العرب ؛ بل تركوه بعد ان روّعهم الصهيونيون واقتلعوهم من ديارهم بالقوة . بيد ان القضية المطروحة امامنا الآن هي : كيف توصل اليهود الى قبول هذه الصور والى تكوين هذه المواقف ؟

معضلة يهودية

ان القبول الذي لقيته الدعاية الصهيونية من جانب يهود العالم وحقيقة السماح لهذه الدعاية بتكوين موقف اليهود من الفلسطينيين هي مسألة تبعث على الحيرة بالفعل وتدعو الى الدهشة والاستغراب . لقد كان هناك منشقون يهود على الدوام – وسوف نعرض آراءهم – لكنهم شكلوا اقلية فحسب . اما اليهود فانهم اسهموا بالمال والرجال والنفوذ لتوطيد دعائم الواقع

١٩ – راجع كتاب الدكتور يوسف صايغ عن **الاقتصاد الاسرائيلي** ، (مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٦) ، ص ٧٧ .

الاسرائيلي وعلى سبيل استمرار الجرائم المرتكبة ضد الفلسطينيين. ان اهل الكتاب وارباب التنور ، وضحايا المذابح الروسية وابادة الجنس على يد النازية ، من الذين عرفوا « داخاو » وغيرها من معسكرات الاعتقال في المانيه وبولونيه ــ هؤلاء اغمضوا عيونهم وصموا آذانهم في فلسطين ، بعد ان بدّلوا الدور من مضطهدين (بفتح الهاء) الى مضطهدين (بكسرها) وجلادين . هذه هي المعضلة اليهودية في الازمنة الحديثة .

كتب احد هاعام عند منعطف القرن يقول بان السلوك اليهودي يدل بوضوح على ان اليهود لم يتعلموا شيئا من تاريخهم . ثم اضاف ما يلي :

« وماذا يفعل اخواننا في فلسطين ؟ العكس تماما . كانوا عبيدا في بلدان منفاهم ، وفجأة وجدوا انفسهم وسط حرية بلا حدود ، بل وسط حرية لا رادع لها ولا يمكن العثور على مثيلها الا في تركيه وحدها. ولقد ولد هذا التحول المفاجىء في نفوسهم ميلا الى الاستبداد ، كما هي الحال دوما وابدا حين يصبح العبد المسود سيدا . انهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة ، فيمتهنون حقوقهم بصورة معوجة يأباها العقل ، ثم يوجهون لهم الاهانات دون اي مبرر كاف ويفاخرون بتلك الافعال رغم كل ذلك . وما من احد يتحرك لاتخاذ الاجراءات اللازمة بغية القضاء على هذه النزعة الخطيرة والخسيسة » (٢٠) .

وفي عام ١٩١٩ كان يهودي آخر ، و. برون ، يردد القول الآتي :

« نحن الذين نقاسي الاضطهادات في جميع انحاء

---

٢٠ ــ انظر :

Achad Ha-am «Die Wahrheit aus Palastina» in Am Scheidewege, op. cit., Bd. I

العالم وندعي لأنفسنا كافة الحقوق الانسانية ، نذهب الى فلسطين ونعكس الادوار هناك » (٢١) .

مثلما لاحظ العالم الانثروبولوجي اليهودي الاميركي ـ غولدنفايزر ـ بكثير من الاستياء ، ان اليهود في فلسطين متعصبون ضد الفلسطينيين وينظرون اليهم نظرة احتقار وازدراء . وحين سأل غولدنفايزر احد المربّين اليهود ما اذا كان المربون يلقنون طلابهم هذه الاشياء . جاءه الجواب على لسان ذلك المربّي : لكنهم يعرفون ذلك من تلقاء انفسهم (٢٢) ، كما ينقل آرثور كوستلر الحقائق التالية : « ان كل يهودي، سواء كان ماركسيا ام لا ، اعتبر نفسه عضوا من ابناء الشعب والعنصر المختار ، واعتبر العربيّ ادنى منه مرتبة ومنزلة » (٢٣) .

الفصام الاخلاقي

ان هذه المعضلة الاخلاقية التي تنتاب اليهود في زماننا تعرف بالفصام الاخلاقي ، أو بـ « قصر النظر الاخلاقي » ، على حد قول الصحافي اليهودي الاميركي الذائع الصيت : ا. ف. ستون . والصحفي ستون منحته منظمة الارغون وساما عام ١٩٤٨ ، ثم كتب مقالا ثاقب النظر عام ١٩٦٧ ، سوف نستشهد بشيء مما جاء فيه.

يقوم ستون باجراء مقارنات بارعة بين السلوكين النازي والصهيوني ، ويستخلص منها نتائج تضع الضمير الانساني على محك التحليل والنقد . ففي معرض دحضه للحجة الصهيونية ضد الاسباب المؤدية الى خروج الفلسطينيين يؤكد ستون ما يلي : « ان الحجة القائلة بان اللاجئين هربوا من تلقاء انفسهم ، او بناء **على اوامر تلقوها من زعمائهم حتى انتهاء القتال ، لا تستند الى**

---

٢١ ـ راجع Van der Hoever Leonhard ، **المصدر السابق** .
٢٢ ـ انظر : Goldenweiser - «Jewish-Arab Prejudice», 1923.
٢٣ ـ انظر :
Arthur Koestler - Promise and Fulfillment, (London, 1949), p. 34.

اسطورة فحسب ، بل هي لا تمت بصلة الى الموضوع الاساسي . الا يحق للنازحين ان يعودوا ؟ افلا يحق لليهود الالمان باستعادة ممتلكاتهم لانهم هربوا ايضا ؟ » (٢٤) .

ثم يتابع ستون قائلا : « ان الارهاب اليهودي ، ليس فقط على يد الارغون في مذابح وحشية مثل مذبحة دير ياسين ، بل ذلك الارهاب الذي مارسته الهاغانا في صيغة مخففة ، هذا الارهاب بالذات « شجع » العرب على مغادرة مناطق كان اليهود يرغبون في الاستيلاء عليها لاسباب استراتيجية ديموغرافية . لقد حاولوا ان يجعلوا من اسرائيل بلدا محررا من العرب وخاليا منهم بقدر الامكان » (٢٥) .

وفيما يتعلق بمقايضة النازحين الفلسطينيين لقاء اليهود الذين تركوا العالم العربي يقول ستون : « ان عرب فلسطين يشعرون ازاء هذه المقايضة مثلما كان اليهود الالمان سوف يشعرون فيما لو جرى انكار حقهم بالعودة الى سابق عهدهم على اساس مقايضتهم باللاجئين الالمان من مقاطعة السوديت » .

« ان قصر النظر الاخلاقي اليهودي يتيح للصهيونيين التمسك ب ١٩٠٠ سنة من النفي عاش اليهود خلالها في حنين الى فلسطين ، بينما هم يأبون على اللاجئين العرب ١٩ عاما عاشوا خلالها في حنين الى فلسطين ايضا معتبرينها اشبه بسنوات الترحل والهجرة » .

ان التشرد ، يضيف ستون قائلا : « هو الموضوع في الصهيونية ؛ لكن هذه العاطفة المثيرة للحزن يجري انكارها على النازحين العرب » .

---

٢٤ ـ راجع مقالة ستون ، **المصدر السابق** (قام مركز الابحاث بنشر هذه المقالة من جديد في مجموعة بعنوان
Selected Essays on the Palestine Question
تحرير ابراهيم العابد ، بيروت ١٩٦٩) .

٢٥ ـ **المصدر نفسه** .

والذين ذاقوا الامرين من جراء العنصرية والتمييز وامتهنت كرامتهم الانسانية هم اقل عذرا في ممارسة العنصرية من اولئك الذين ليس بمقدورهم سوى تخيل التأثيرات السلبية للتعصب. ان ستون ينقل الينا حديثا بثه التلفزيون الاميركي مع موشيه دايان في ١١ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، حيث افضى دايان بانه حتى ولو كانت اسرائيل قادرة على استيعاب الفلسطينيين في « المناطق المستولى عليها » ، فانها لن تقدم على شيء من ذلك . لانه سوف يجعل منها دولة مزدوجة القومية او متعددة الاتجاهات بين العرب واليهود ، بدلا من كونها دولة يهودية : « نريد دولة يهودية بكل معنى الكلمة . مثلما توجد لدى الفرنسيين دولة فرنسية » . ثم يعلق ستون على تصريح دايان بقوله : « ان هذه العبارة لا بد لها من احداث انزعاج عميق في نفس القارىء اليهودي المتبصر . وحين اقدم فرديناند وايزابيلا على طرد اليهود والعرب من اسبانيه ، فانهما كانا يقولان بالطريقة نفسها: نريد لاسبانيه ان تكون اسبانية. اي مسيحية ، مثلما هي فرنسه فرنسية » (٢٦) .

وفي خاتمة مقاله يؤكد ستون على ما يلي :

«ان اسرائيل تخلق نوعا من الفصام الاخلاقي لدى يهود العالم . ففي العالم الخارجي يعتمد خير اليهود على بقاء المجتمعات العلمانية بطابعها اللاعنصري والتعددي والحفاظ على هذا الطابع . بينما يجد اليهود انفسهم في اسرائيل يدافعون عن مجتمع لا يسمح باقرار الزواج المختلط شرعا ، وحيث يقبع غير اليهود في مكانة ادنى من مكانة اليهود ، لا بل في مجتمع يتصف مثاله الاعلى بالعنصرية واستثناء غير اليهود . وهكذا يجد اليهود انفسهم في خارج اسرائيل بموقف المكافحين في سبيل امنهم ووجودهم ـ ضد تلك المبادىء والممارسات التي يدافعون عنها في اسرائيل . فالذين ينتمون الى العالم الخارجي ، حتى في لحظات حماسهم البالغ وسط الانجازات الاسرائيلية، يشعرون بوخزات من رهاب الاحتجاز (Claustrophobia)

---

٢٦ ـ المصدر نفسه .

ليس الاحتجاز الجغرافي فحسب ، بل الروحي ايضا . والذين استبد بهم حماس النبوءة سرعان ما تنتابهم مشاعر الخيبة ، لان النور الذي كانوا يتوسمون خروجه من صهيون لم يكن سوى نور قومية اخرى ، ضيقة ومتعصبة » .

« ومما ينبغي ادراكه ايضا ، رغم انف الايديولوجية الصهيونية ، هو ان الفترات التي شهدت اعظم منجزات الابداع اليهودي كانت تلك الفترات المرتبطة بمدنيات وحضارات متعددة ابان حقبة توسعها وتسامحها : في العصر الهلنستي ، وبين ظهراني الحضارة العربية في شمال افريقيه واسبانيه ، وفي كل من اوروبه الغربية واميركه . فالقيم الجامعة لا يمكنها ان تكون الا ثمرة رؤيا جامعة . وعظمة الانبياء تكمن في تغلبهم على التمركز العرقي الضيق (Ethnocentricity) ان القومية القزم لا تستطيع تقطير الحقائق للانسانية جمعاء . هنا تقبع جذور التباعد المتزايد بين اليهودي والاسرائيلي : فالاول يحدوه حس الرسالة كشاهد في مجاهل عالم الانسان ، اما الثاني فلا يعبأ الا لخير عشيرته ومصلحتها » (٢٧) .

هل سيغير اليهود مواقفهم ؟

تبين لنا ، عن طريق الاستشهادات المباشرة ، بانه كان هناك على الدوام فريق من اليهود المخالفين للصهيونية لاعتبارات اخلاقية. فالراي اليهودي الموحد ، او المتراص بالمعنى الحقيقي ، لم يوجد على الاطلاق . ونجاح الدعاية الصهيونية في استقطاب اكثرية اليهود الى جانبها لا ينسب الى الخديعة والتلاعب وحدهما . بل ينبغي الاقرار بوجود مقدار كاف من الذكاء لدى اليهود مما يحول دون خضوعهم كليا لسيطرة التلاعب . والعداء للسامية داخل الغرب والرياء السائد في المجتمعات الغربية والمتحكم باسلوب معالجتها للقضايا العرقية والدينية كانا من العوامل التي اسهمت في دفع اليهود تدريجيا الى احضان الفصام الاخلاقي المتقدم ذكره .

وعلينا بكل صراحة ان نضيف الى تلك العوامل مسألة المواقف

---

٢٧ ـ المصدر نفسه .

والنواقص العربية . فالمواقف المعادية لليهود كانت سائدة في العالم العربي قبل الثورة الفلسطينية ــ رغم انها وليدة المواقف اليهودية المعادية للعرب وردة فعل لها . والفلسطينيون لم يتمكنوا من تقديم بديل انساني معقول عن اسرائيل الصهيونية ولها . فاليهود اخذوا يلاقون صعوبة في العيش داخل البلدان العربية ، كما ان مشكلات الاقليات في عدد من البلاد العربية كانت تثير الشكوك حول امكانية عثور اليهود على الامن والاطمئنان المنشودين بين ظهراني المجتمعات العربية دون الاحتماء في ظل اسرائيل العسكرية . ففي فترة ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨ تمتع اليهود بالامن والسلامة بينما كان الفلسطينيون ، وسائر العرب فيما بعد ، يحرمون منهما .

ان الثورة الفلسطينية قدّمت مجموعة جديدة من البديلات : لا امن هناك في ظل الدولة العنصرية ، بل يسود الامن كليا في ظل المجتمع الجديد : دولة فلسطين الديموقراطية .

ثمة حوار يتصاعد بين الثوار الفلسطينيين من جهة وبين اليهود من تقدميين وليبراليين واشتراكيين ، وحتى المحافظين دينيا منهم . وهناك عدد متزايد باستمرار من الاصدقاء اليهود الذين يفتحون ذراعيهم لمعانقة الثورة الفلسطينية التي تفتح بدورها ذراعيها لهم .

ان الصهيونيين ينتابهم القلق بالفعل من جراء هذه الظاهرة الجديدة . ففي مقالة نشرتها صحيفة « الجيروسالم بوست » بتاريخ ٢ تموز (يوليو) ١٩٦٩ اتهم رؤساء تحرير الصحيفة اولئك اليهود بخيانة شعبهم واعتبروا تحالفهم مع الثورة بمثابة مسألة شديدة الخطورة وتنطوي على خطورة بالغة . ومن المهم ان يتم التشديد على مسألة الفصام الاخلاقي اليهودي ، وان يوقظ الوجدان اليهودي بالصدمات على ادراك عواقب الصهيونية ونتائجها. بيد انه اكثر معقولية توقع اقدام اليهود غير الاسرائيليين على التصالح مع الثورة الفلسطينية قبل ان يقدم الاسرائيليون على ذلك . فلا يخفى ، مثلا ، بان الفرنسيين في باريس وجدوا من الاسهل تقبل الثورة الجزائرية، اكثر مما وجد المستعمرون الفرنسيون .

لكن الجهود ينبغي ان تستمر في فلسطين بغية كسب اليهود الى جانب الثورة . ان تصعيد الثورة سوف تكون له نتائجه . ومن الواضح ان هذا التصعيد سوف يؤدي الى تصلب بعض اليهود الصهيونيين حيال الفلسطينيين، وبنوع خاص لدى تلك الاوليغاركية المعرضة للخسارة عند قيام الدولة الديموقراطية والمنفتحة في فلسطين . غير ان التصعيد سوف يكون له تأثير الصدمة . فهو سيولد الادراك بان اسرائيل المقصورة على اليهود وحدهم والموقوفة على عنصرهم ليست المكان الذي ينعم بالامن والاطمئنان . ولا يمكنها البقاء على هذه الحال .

ان الثورة الفلسطينية تتحمل قسطا كبيرا من المسؤولية في كسب اليهود الى جانب الثورة عن طريق الافعال وليس الاقوال فحسب . وينبغي للثورة الا تدع اية فرصة تفوتها ــ كما هي فاعلة حقا ــ دون ان تبرهن ليهود العالم واليهود الفلسطينيين بانها سوف تقف الى جانبهم متى تعرضوا للاضطهاد ، وانها عاقدة العزم على العيش واياهم والعمل سوية معهم في سبيل خلق فلسطين الجديدة وايجاد المجتمع الذي يقوم على التعاون والتسامح بدلا من التعصب والعنصرية والتمييز .

فلو نجحت مثل هذه الحملة ، سواء على صعيد كسب المعارك ام كسب القلوب والعقول ، فان فلسطين الديموقراطية سوف تصبح قابلة للتصديق والتحقيق ، لا بل امرا مرغوبا فيه .

كيف ستبدو هذه الدولة الجديدة ؟ وماذا تعني الثورة الفلسطينية حقا باوصاف الديموقراطية والتقدمية واللاطائفية ؟ ان هذه المسائل في غاية الخطورة والجدية . مما يؤهلها كي تستأثر باهتمامنا البالغ في المقالة التالية .

(٣)

نحو فلسطين ديموقراطية

صعوبات وقيود

انه لمن الصعب ، وينطوي على مجازفة ، اصدار تصريح واضح ومحدد الصيغة في هذه المرحلة المبكرة من الثورة عن فلسطين الجديدة والمحررة . فالواقعية ، وليست احلام اليقظة الرومانسية ، يجب ان تؤلف المنحى الثوري الاساسي . ونحن لا نعتقد بأن النصر على قاب قوسين او ادنى . فالثورة لا تقلل من شأن العدو او حلفائه الامبرياليين. وليس من السهل التنبؤ مسبقا بما سيحدث خلال سنوات الكفاح القاسي في سبيل التحرير . هل سيزداد موقف اليهود الفلسطينيين تصلبا ام انه سيصبح اكثر مرونة وتقبلا للتغير ؟ ان المزيد من الانحراف نحو اليمين وتصعيد الارهاب ضد العرب — جريا على التقليد الذي اتبعته منظمة الجيش السرية في الجزائر — وما يتبع ذلك من خروج جماعي وطوعي عشية التحرير . هذا السياق المؤسف سوف يطرح مشكلة تختلف تمام الاختلاف .

ومن جهة ثانية ، فالانضمام الى صفوف الثورة والعمل معها سوف يؤدي الى ترسيخ نمو فلسطين الجديدة . ان الثورة تبذل قصارى الجهد في سبيل تحقيق البديل الثاني . فالعمليات الفدائية تتجه بشكل اساسي صوب المنشآت العسكرية والاقتصادية لدولة المستوطنين الصهيونيين . وحين يجري اختيار هدف مدني لضربه ، فان الجهود تبذل للتقليل بقدر الامكان من

الخسائر في ارواح المدنيين ـ علما بانه يصعب على المرء ان يميّز بين المدنيين والعسكريين في هذا المجتمع العسكري الحديث على غرار مجتمع اسبارطه ، حيث يتم تجنيد كافة الشبان وتعبئتهم للحرب . اما توجيه الضربات الى المناطق شبه المدنية فانه يهدف الى احداث تأثير نفسي عن طريق انزال صدمة بالاسرائيليين علهم يدركون بان دولتهم العسكرية والعنصرية اعجز من ان تزودهم بالامن والسلامة بينما هي تمارس جرائمها العنصرية ضد جماهير الفلسطينيين المشردين والمضطهدين . ففي القنبلة التيوضعها فدائيو فتح بشارع ديزنغوف (تل ابيب) ، مثلا ، كان علىواضعي تلك القنبلة ان يؤجلوا العملية ثلاث مرات لكي يختاروا لها مكانا (امام بناية قيد التشييد) وزمانا مناسبا (في الساعة ١٢٠٣٠ بعد منتصف الليل) ، لكي يضاعفوا صوت الانفجار ويقللوا من الاصابات . وكانت النتيجة ان الاصابات جاءت قليلة. بينما ذهل الالآف من دوي الصدمة ، وعكفوا على اعادة النظر جديا في آرائهم ومفاهيمهم .

وخلاصة القول ، رغم كل عناصر الشك والريبة التيتكتنف الموقف ، هناك الامل والرؤيا وسلوك الثوار الفلسطينيين الهادف الى تحقيق مستقبل افضل لوطنهم المستعبد . ينبغي التفكير بالاجوبةوالعثور على اجوبة لشتى الاسئلةالمتعلقة بهذا المستقبل. وحتى لو كانت هذه الاجوبة مؤقتة وغير نهائية ، فانها سوف تبدأ حوارا يؤمن الطريق نحو النضج والتحقيق .

لمحة مختصرة عن فلسطين الديموقراطية

١ ـ البلاد

ان فلسطين ما قبل ١٩٤٨ ـ كما عرفت خلال الانتداب البريطاني ـ هي الرقعة الارضية التي سوف يتم تحريرها ، وهي مكان اقامة الدولة الديموقراطية التقدمية . **وفلسطين المحررة هذه سوف تؤلف جزءا من الوطن العربي ، ولن تكون دولة اجنبية او غريبة في وسطه . ان توحيد فلسطين في نهاية المطاف مع**

غيرها من الدول العربية سوف يجعل مشاكل الحدود اقل اهمية، مثلما انه سوف يضع حدا لوضع اسرائيل الحاضر والمصطنع ، وربما ادى الى تصحيح اوضاع الاردن ايضا . فالدولة الجديدة سوف تناهض الامبريالية وتنضم الى صفوف البلدان الثورية التقدمية . لذا يتوجب عليها ان تقطع شريان الصلات الحيوية القائمة حاليا مع الولايات المتحدة وتتخلص من الاعتماد الكلي عليها . وبناء عليه فالاندماج المتكامل في بيئة المنطقة سوف يأتي في طليعة الشروط المطلوبة من حيث الاهمية والضرورة .

وينبغي ان يتضح تماما في هذه المرحلة بان فلسطين الجديدة التي نتحدث عنها هنا ليست الضفة الغربية المحتلة او قطاع غزة المحتل او الاثنين معا. فهذه مناطق يحتلها الاسرائيليون منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . بينما وطن الفلسطينيين الذي اغتصبته اسرائيل واستعمرته عام ١٩٤٨ لا يقل اهمية عن القسم الذي احتلته عام ١٩٦٧ . وعلاوة على ذلك ، فان مجرد وجود دولة اسرائيل العنصرية والمستبعدة (بكسر الباء) ، كدولة تقوم على اجلاء قسم من مواطني فلسطين وتشريدهم بالقوة ، ليس بالامر الذي تقبله الثورة الفلسطينية حتى ولو كان محصورا بقرية صغيرة. ان كل ترتيب يؤدي الى تكييف مع دولة المستوطنين المعتدية هو ترتيب غير مقبول ومؤقت . والتسوية الدائمة بعد التحرير الكامل هي وحدها التي تكون مؤهلة لضم شعب فلسطين، من يهود ومسيحيين ومسلمين ، تحت سقف وطن واحد .

٢ ـ المقومات

ان جميع اليهود والمسلمين والمسيحيين من المقيمين في فلسطين او المشردين عنها بالقوة سوف يكون لهم الحق بالمواطنية الفلسطينية . وهذا ما يضمن حق جميع الفلسطينيين المشردين بالعودة الى وطنهم سواء كانوا من مواليد فلسطين او المنفى وبغض النظر عن جنسيتهم الحالية .

معنى ذلك ، بالتساوي ، ان جميع الفلسطينيين اليهود

ــ اي الاسرائيليين حاليا ــ لهم نفس الحق شرط ان يرفضوا بالطبع الشوفينية العنصرية الصهيونية وان يقبلوا كليا العيش كفلسطينيين في المجتمع الفلسطيني الجديد . لذا فان الثورة ترفض الافتراض القائل بان اليهود الذن عاشوا في فلسطين قبل ١٩٤٨ او قبل ١٩١٤ والمتحدرين منهم فقط سوف يحظون بالقبول . ومن المعروف ان دايان وآلون هما من مواليد فلسطين قبل عام ١٩٤٨ ، بحيث انهما الى جانب العديد من زملائهما يجسدان تلك العنصرية الصهيونية التي يصعب استئصال شأفتها . ومن الواضح ان ذلك لا يؤهلهما للمشاركة في المواطنية الفلسطينية . بينما يحتمل وجود الكثيرين من اعداء الصهيونية بين القادمين الجدد ، اذ يظهر هؤلاء استعدادهم للعمل المخلص في سبيل اقامة فلسطين الجديدة .

ففي مقابلة صحفية شهيرة مع احد المسؤولين بمنظمة فتح اكد ابو اياد من جديد بان المواطنية الفلسطينية لن تكون وقفا على اليهود التقدميين والمعادين للصهيونية فحسب ، بل سوف تشمل الصهيونيين الحاليين من الذين يعربون عن استعدادهم للتخلي عن ايديولوجيتهم العنصرية . والثورة الفلسطينية تعتقد بان جميع اليهود الاسرائيليين حاليا سوف يغيرون مواقفهم ويؤيدون فلسطين الجديدة في نهاية المطاف ، خصوصا بعد ان يتم القضاء على جهاز الدولة الاوليغاركي وعلى مؤسساتها الاقتصادية والعسكرية .

٣ ــ الايديولوجية

ان الفلسطينيين اثناء مسيرة التحرير ولدى تحقيق التحرر سوف يقررون نظام الحكم وطبيعة التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي في وطنهم المحرر .

(لا بد من التذكير هنا بان لفظة « فلسطينيين » تشمل الفئات التالية : المشردين والواقعين تحت الاحتلال والمستوطنين اليهود) .

غير ان فلسطين الديموقراطية والتقدمية ترفض عن طريق الطرح والاسقاط اي شكل للحكم يتصف بالثيوقراطية والاقطاعية ، او الارستقراطية والسلطانية ، ويتميز بالعنصرية والشوفينية . سوف تؤلف فلسطين بلدا يمنع اضطهاد فئة او استغلالها على يد فئة اخرى . وذلك يصدق على الافراد في مجتمعها ايضا . وسوف تكون فلسطين دولة تتيح الفرص المتكافئة لمواطنيها سواء كان ذلك في مجال العمل او العبادة ، او في حقل التربية واتخاذ القرارات السياسية ، وعلى صعيد التعبير الثقافي والفني .

ان هذه الصورة ليست حلما طوباويا ، لان عملية تحقيق فلسطين الجديدة بالذات تفرز من تلقائها المناخ المطلوب لنظام حكمها في المستقبل ، اي ان حرب التحرير الشعبية تولد القيم والمواقف الجديدة . بحيث تكون هذه القيم والمواقف بمثابة ضمانات للديموقرطية بعد التحرير . والشاهد على ذلك هو التبدل الذي طرأ على المواقف حيال العمل الجماعي في مخيمات النازحين ومعسكرات الفدائيين في الاردن ولبنان. فالفلسطينيون وغيرهم من الاخوان المنضمين اليهم يتبرعون بالعمل الطوعي مثلما يقدمون معيشتهم ورزقهم للثورة . انهم ليسوا من العمال المستغلين او المستعبدين . وقيم الحياة الانسانية تخضع للتغير . وعلى العكس من غارات النابالم الاسرائيلية والقتل بدون تمييز ، نجد الفدائيين الفلسطينيين يميزون في اختيار اهدافهم ويتحاشون ازهاق الارواح بصورة عشوائية . هكذا تبرز اشكال جديدة للعلاقات الانسانية . فلا يمكن قيام علاقة على غرار علاقة العبد والسيد بين المقاتلين لاجل الحرية . والوعي المتزايد للابعاد العالمية التي تأخذها قضيتهم ، الى جانب اكتشافهم لمن يؤيد المغتصب ويدعم المستعبد والمضطهد ، تخلق لديهم مسؤوليات جديدة حيال المجتمع الدولي ، وخصوصا نحو مؤيدي التحرر والديموقراطية.

وبناء عليه فان الفلسطينيين بعد التحرير لن يقبلوا الاخضاع لسلطة احد ، ولن يعمدوا الى ارجاع الاستعباد ضد اية فئة ، لان ذلك معناه استلاب اسباب وجودهم والتنازل عن كيانهم

الثوري . وهذا ما يتضح بجلاء داخل مخيمات اللاجئين في كل من لبنان والاردن . فبعد انقضاء عشرين عاما ذاقوا خلالها الاضطهاد والاذلال وتلاعبت بهم الشرطة السرية مثلما استغلهم الساسة المحليون ، استيقظت مخيماتهم على الثورة. واثناءعملية الاستيقاظ هذه حطّم المشردون اغلالهم وطردوا رجالاتالبوليس السري وعملاءهم وسائر المستغلين ، لكي يقيموا ادارة ذاتية على اسس ديموقراطية صحيحة . فالخدمات الطبية والتربوية والاجتماعية تقدم لهم محليا عبر المنظماتالثورية وبطريقةالمساعدة الذاتية على نحو اعاد اليهم شعور الكرامة الانسانية والعزة . ان نسبة الجرائم في تلك المخيمات هبطت بشكل حاسم الى ١٠ بالمائة من معدلها قبل الثورة . والانضباط الذاتي حل محل الشرطة . فالميليشيا الجديدة تؤمن صلة الوصل بين الطليعة الثوريةوالقاعدة الشعبية والجماهيرية . والقيود الديموقراطية تنشأ تلقائيا . ان هؤلاء الفلسطينيين لن يرضوا بالاستعباد والاخضاع من اية جهة كانت ، مثلما انهم لن يفرضوا ذلك على احد من الناس .

لقد اكتشف الصحافيون والزوار الاجانبانهم لن يستطيعوا العثور في اي مكان آخر من العالم العربي على اناس يمثلون النضج والتساهل ازاء اليهود مثلما يتجسد ذلك في معسكرات الفلسطينيين ومخيماتهم داخل الاردن ولبنان ، وبين الاشبالبنوع خاص . ان هؤلاء الاشبال الفلسطينيين (تتراوح اعمارهم بين ٨ ــ ١٦ سنة) متحررون كليا تقريبا من كل تحامل ضد اليهود او تعصب. وهم يملكون رؤيا اشد وضوحا لفلسطينالديموقراطية الجديدة من الرؤيا الموجودة لدى سكان المدن من البورجوازيين. هؤلاء الشبان هم محررو المستقبل . سوف يتمون القضاء على الاستبداد الاسرائيلي مثلما ينجزون اعادة بناء فلسطين الجديدة.

واذا كانت فلسطين الجديدة بطابعها الديموقراطيوالتقدمي اشبه ما تكون بالطوباوية والمثال البعيد مناله ، فان الفدائيين الفلسطينيين وسكان المخيمات قد بدأوا يمارسونها .

مفهومان مغلوطان

برزت تفسيرات عديدة لفكرة فلسطين الديموقراطية في مختلف الاوساط وهذا مما يتطلب الايضاح وبعض التصحيحات. والمحاولة التي نقوم بها حاليا تهدف الى البحث في اثنين منها على جانب كبير من الاهمية :

١ ـ ان الدعوة لاقامة مجتمع فلسطيني لا طائفي يجب الا يختلط امرها مع الدولة المتعددة الاديان او المزدوجة القومية . فالمجتمع الفلسطيني الجديد لن ينشأ حول ثلاث ديانات للدولة او حول قوميتين . بل بالاحرى سوف يعمد ببساطة الى تامين التحرر من الاستعباد الديني لفئة ما على يد فئة اخرى ، والى ضمان حرية العبادة الدينية بدون تمييز فالثورة لا ترغب في تحجير الخطوط الدينية . ولا تنوي توزيع المناصب السياسية وغيرها من الوظائف وفقا لنسب دينية معينة . ان النموذج اللبناني (حيث تقوم الاوساط الرجعية والاقطاعية او الهرم التجاري ـ الراسمالي بتوزيع المناصب والوظائف وفقا لخطوط طائفية تضمن لها السيطرة على الجماهير) هو نموذج غريب عن الثورة كل الغرابة .

فقد شدد ابو عمار اكثر من مرة على ان رئيس فلسطين المحررة يمكنه ان يكون يهوديا او مسلما او مسيحيا ، ليس بسبب انتمائه الديني او الطائفي ، بل على اساس كفاءته كشخص فلسطيني بارز . وفضلا عن ذلك فان الخطوط الدينية والاثنية تتقاطع في فلسطين على نحو يجعل من عبارتي « مزدوج القومية» و « الثنائية العربية ـ اليهودية » بلا معنى ، او اشبه بالاوصاف المريبة في احسن الحالات .

ان اكثرية اليهود في فلسطين اليوم هم من اليهود العرب ـ الذين يطلق عليهم الصهيونيون تسمية «الشرقيين» على سبيل تلطيف التعبير . لذا فان فلسطين تجمع بين اليهود والمسيحيين والمسلمين العرب الى جانب اليهود غير العرب (الغربيين) .

٢ ـ ان فلسطين الديموقراطية الجديدة **ليست بديلا عن التحرير** . بل هي بالاحرى الهدف النهائي للتحرير . فالثـورة ترفض بصورة قاطعة فكرة الدولة العميلـة في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة ، مثلما ترفض اسرائيل المجردة من طابعها الصهيوني او المعقمة على غرار النمط الذي يدعو له آفنيري . وترفض الكونفدرالية السامية . كل هذه المقترحات هي تصاميم عنصرية يقصد بها تضليـل الفلسطينيين وغيرهم من العـرب واستمرار الهيمنة الاسرائيلية والاخضاع الفلسطيني . انها كلها تفترض الحفاظ على العـدوان الاساسي الذي ادى الى تشريـد الفلسطينيين بالقوة والى اضطهاد الجماهير واستعبادها. فالشرط الذي لا بد منه لفلسطين الجديدة هو القضاء على الجذور والاسس السياسية والاقتصادية والعسكرية لدولة المستوطنين بعنصريتهـا وطابعها الشوفيني . والابقاء على آلة عسكرية متقدمة تكنولوجيا عن طريق التدفق المستمر للرساميل الغربية وتبادل السكان حمل الاجهزة الصهيونية التوسعية على شن العدوان تلو الاخر . لذا فان تصفيـة هذه الاجهزة شرط لا بديل عنه لاقامـة فلسطين الجديدة . فحين تمت تصفية اجهزة الدولة النازية ، تم معها تحرير الشعب الالماني الى جانب سواه من الامم والشعوب التي استعبدتها المانيه النازية . مثل بولونيـه وهنغاريه وهولنـده وفرنسه .

الانتقال وما بعده

انه لمن المنطقي تماما توقع السماح بتكييفات جماعية خاصـة لها طابع انتقالي في **الفترة التي تلي التحرير مباشرة** ، وربما جرى الابقاء على بعضها تحت ظل الدولة الدائمة باوضاعها السوية ، اي منح بعض الامتيازات الجماعيةاو الفئوية الى جانب الامتيازات الفردية البحتة . فاليهود وغير اليهود سوف يكون لهم الحـق في ممارسة دينهم وتطوير ثقافتهم ولغتهم كجماعة ، بالاضافة الى مشاركتهم الفرديـة على صعيد السياسة والثقافـة . ان حق المواطن في حرية الحركة والتنقل داخل البلاد وخارجها سوف

يكون مضمونا . فالفلسطينيون الراغبون في مغادرة البلاد بملء ارادتهم سوف يسمح لهم بذلك . والهجرة سوف تبقى مقيّدة خلال الفترة الانتقالية بعودة جميع الفلسطينيين المشردين الذين يرغبون في العودة . اما تحت ظل الدولة الدائمة والسوية فان الهجرة سوف تكون مفتوحة بدون تمييز ، شرط ان تخضع للانظمة المتفق عليها وان تنسجم مع القدرة الاستيعابية للبلاد . كما ان حرية الوصول والزيارات والحج لفترة طويلة والسياحة سوف تكون مضمونة ـ بعد خضوعها بالطبع للانظمة المعتادة ـ لجميع اليهود والمسلمين والمسيحيين من سائر انحاء العالم طالما انهم يعتبرون فلسطين مكانا مقدسا يستحق الحج اليه والتأمل فيه .

هل ان فلسطين قابلة للحياة ؟

يؤكد نقاد عديدون من اصحاب النوايا الطيبة بانه حتى ولو كان خلق فلسطين الديموقراطية امرا ممكنا ، فانها لن تبقى طويلا على قيد الحياة . اما حجتهم الرئيسية في ذلك فهي ان التوازن السكاني والثقافي سوف يكون لصالح اليهود الى درجة كبيرة في فلسطين الجديدة . وهذا مما سيؤدي في نظرهم اما الى خلق وضع قابل للانفجار . او الى وقوع فلسطين الجديدة تحت سيطرد اليهود واحتمال ارتدادها الى دولة نيو ـ صهيونية مستترة .

انهذه الحجةجدية وتبدو معقولة تماما، فيما لو اخذنا الوضع الحاضر والتركيب الراهن ، وفي ضوء الثنائية الاوروبية بين « العرب » كجماعة متأخرة ، و « اليهود » كجماعة عصرية .

وفيما يتعلق بالسكان ، فان اليهود في فلسطين اليوم يعدون ٢ر٥ مليون نسمة . يقابلهم ٢ر٦ مليون نسمة من عرب فلسطين (مسيحيين ومسلمين) في المناطق المحتلة قبل ١٩٦٧ وبعدها وفي التشرد والمنفى .

ان معدل الولادات وصافي الزيادة الطبيعية هي اعلى نسبةبين عرب فلسطين منها بين اليهود في فلسطين .

بيد ان الهجرة كانت السبب الرئيسي للنمو والزيادة بين صفوف اليهود. ومما ينبغي اخذه بعين الاعتبار هو الحقيقة التالية: لقد بلغ مجموع اليهود الذين غادروا فلسطين بصورة نهائية ودائمة منذ عام ١٩٤٩ ، وفي فترة سادها الامن نسبيا ، حوالي ٢٥٠ الف نسمة . ان معظم هؤلاء المهاجرين من اسرائيل كانوا من اليهود الاوروبيين. بينما نجد معظم المهاجرين الجدد الى اسرائيل من اليهود العرب الذين لاقوا صعوبة جمة في البقاء باوطانهم بعد خلق دولة اسرائيل المعتدية والاستيطانية وبقائها على قيد الحياة .

ان مسيرة الثورة سوف تعمد حتما الى التعجيل في سرعة المهاجرة ، خصوصا بالنسبة الى اولئك المنتفعين من الدولة العنصرية والذين سوف يجدون صعوبة في التكيف لاوضاع مجتمع تعددي ومفتوح .

وفي خط موازٍ لهذه المسيرة وهذا التطور سوف يزداد تحديث البلدان العربية والتساهل ازاء جميع الاقليات ، ومن جملتهم المواطنين اليهود . ان منظمة فتح اخذت تقوم باجراء مفاوضات جدية مع عدد من البلدان العربية بغية السماح للمهاجرين اليهود بالعودة وارجاع ممتلكاتهم وضمان حقوقهم المتساوية والتامة .

ان هذه العوامل من المتوقع لها عموما ان تحافظ على التوازن النسبي للسكان في فلسطين .

كما ان خطو التطور الاجتماعي والثقافي يزداد بسرعة بين العرب الفلسطينيين . ومن التقديرات ان عدد خريجي الجامعات بين الفلسطينيين المشردين يتجاوز الخمسين الفا .

لقد لعب الفلسطينيون بنجاح دور المربّين والمهنيين والتقنيين في عدد من البلدان العربية ، وخصوصا بلدان شبه الجزيرة وشمال افريقيه . وجابه عرب فلسطين هذا التحدي الثقافي في بلادهم قبل عام ١٩٤٨ ، مثلما تمكنوا خلال فترة قصيرة نسبيا – من ٣٠ سنة – ان ينافسوا اليهود بشكل فعال في حقل الزراعة والصناعة والتربية ، وحتى في حقلي المال والمصارف . ان عرب فلسطين ، يتسلمون

بروح ثورة ظافرة ويأملون برفقة عدد بارز من اليهود ، لكي يصبحوا شركاء متساوين وطاقة فعالة في بناء البلاد الجديدة .

واندماج فلسطين داخل الوطن العربي وتوحدها الكامل سوف يضيف الى قابليتها الاقتصادية والسياسية للحياة . فالمقاطعة العربية الحالية سوف يجري استبدالها بالمساعدة الاقتصادية والتجارة ، وهو الهدف الذي فشلت دولة المستوطنين الاسرائيلية في تحقيقه كل الفشل ، فبقيت عالة على اميركه وتحت حمايتها ورعايتها طيلة فترة وجودها .

خاتمة

ان فلسطين الديموقراطية واللاطائفية ما زالت بحاجة الى توضيح وشرح كاملين ؛ لكن ما فعلناه اعلاه هو افضل الامكانات المتاحة في هذه المرحلة الصعبة من الكفاح التحريري . لقد تجاوز الفلسطينيون مرارتهم وتحاملهم في فترة قصيرة نسبيا على طريق الكفاح المسلح . فلو جرى بحث هذا الاقتراح قبل سنوات قليلة ، لكان الامر يعتبر من قبيل التصفية المشبوهة او الخيانة العظمى . وحتى اليوم ، هناك بعض العرب ممن يجدون صعوبة جمة في قبول الهدف المقترح ويأملون سرا او علانية بالا يكون اكثر من مجرد تحرك دعائي وتكتيكي. والواقع انه ليس كذلك على وجه التأكيد. فالثورة الفلسطينية مصممة على القتال في سبيل اقامة فلسطين الجديدة بطابعها الديموقراطي واللاطائفي باعتبارها تؤلف الهدف النهائي والبعيد المدى للتحرير . ان ابادة اليهود او ابادة المشردين الفلسطينيين واقامة دولة عنصرية قصرية في فلسطين، سواء كانت هذه الدولة يهودية ام مسيحية ام مسلمة ؛ هي امر لا يمكن القبول به اطلاقا ، وليست بالحل الناجح او الذي يدوم طويلا . ان الجماهير الفلسطينية المستعبدة سوف تقاتل وتقدم جميع التضحيات اللازمة للقضاء على الدولة الغاصبة والعنصرية .

ان العنصريين الاسرائيليين يستشيطون غضبا لفكرة لفلسطين الديموقراطية . فهي تكشف تناقضات الصهيونية وتميط اللثام عن الفصام الاخلاقي الذي ينتاب يهود العالم منذ خلق اسرائيل . كما ان تبنّي عدد من اليهود التقدميين البارزين للهدف الجديد يلقي الفزع في روع الصهيونية العالمية. فالبروفسور اليهودي الاسرائيلي،

لوبل ، والكاتبة اليهودية الفرنسية، آنيا فرانكوس ، تعرضا للتهديد والاهانة من جانب الصهيونيين بسبب تأيدهما لفلسطين الديموقراطية كهدف نهائي للتحرير . ويقوم الصهيونيون بتصعيد حملتهم الرامية الى اضعاف الثقة بالفكرة وتشويه سمعتها بين اليهود بنوع خاص . ان جهودهم ذهبت عبثا . فقوة المنطق والاثر الذي احدثته سنوات الاضطهاد في المجتمعات المغلقة على ايدي العنصريين اخذت تفتح عيون اليهود وغيرهم في العالم على ان الحل الاوحد والدائم ، الحل القادر على احلال السلام الدائم والعدالة في فلسطيننا ، هو الآتي : اقامة مجتمع تقدمي ومنفتح ومتساهل، يضم جميع ابناء فلسطين تحت سقف واحد .

منظمة التحرير الفلسطينية
مركز الابحاث
شارع كولومباني المتفرع من شارع السادات

قائمة بالمنشورات الصادرة عن مركز الابحاث من كانون الثاني (يناير) حتى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٠

السعر لل

اولا ـ سلسلة دراسات فلسطينية :

	السعر لل
١ ـ د. فايز صايغ ، الاستعمار الصهيوني في فلسطين (ه)	١
١٠ ـ ابراهيم العابد ، العنف والسلام : دراسة في الاستراتيجية الصهيونية (ف)	٢
٦٢ ـ د. عز الدين فوده ، الاحتلال الاسرائيلي والمقاومة الفلسطينية في ضوء القانون الدولي العام (ان)	٢
٦٨ ـ د. اسعد رزوق ، المجلس الامريكي لليهودية : دراسة في البديل اليهودي للصهيونية (ع)	٣
٦٩ ـ علي الدين هلال ، كنده وقضية فلسطين (ع)	٢
٧٠ ـ د. محمد المجذوب ، اعمال اسرائيل الانتقامية ضد الدول العربية (ع)	٢
٧١ ـ خليل ابو رجيلي ، الزراعة اليهودية في فلسطين المحتلة (ع)	٣

٧٢ ـ د. حامد عبد الله ربيع ، فلسفة الدعاية الاسرائيلية (ع)	٣
٧٣ ـ ابراهيم العابد ، حقوق الانسان في الاراضي المحتلة (ان)	٢
٧٤ ـ يوسف شبل ، اعباء الحرب على الاقتصاد الاسرائيلي (ع)	٢
٧٥ ـ اميرة حبيبي ، النزوح الثاني : دراسة ميدانية تحليلية لنزوح ١٩٦٧ (ع)	٣
٧٦ ـ بهيم سنج وانجلينا حلو ، دراسة الاسس التي قامت عليها اسرائيل (ان)	٢

ثانيا ـ سلسلة كتب فلسطينية :

١٣ ـ د. اسعد رزوق ، اسرائيل الكبرى (ان)	١٠
١٧ ـ ابراهيم العابد ، دليل القضية الفلسطينية: اسئلة واجوبة (ف)	٨
٢٥ ـ روبرت جون وسامي هداوي ، المفكرة الفلسطينية ـ ج ١ (ان)	٢٠
٢٦ ـ روبرت جون وسامي هداوي ، المفكرة الفلسطينية ـ ج ٢ (ان)	٢٠
٢٧ ـ ليلى قاضي ، الوثائق الاساسية لحركةالمقاومةالفلسطينية (ان)	٨
٢٨ ـ ف. يحيا ، القضية الفلسطينية والقانون الدولي (ان)	٨
٢٩ ـ خالد قشطيني ، في التوسع الاسرائيلي (ان)	٨
٣٠ ـ جورج جبور ، الاستعمار الاستيطاني في جنوب افريقيه والشرق الاوسط (ان)	٨
٣١ ـ د. اسعد رزوق ، التلمود والصهيونية (ع)	٨

ثالثا ـ سلسلة ابحاث فلسطينية :

٣ ـ د. انيس صايغ ، فلسطين والقومية العربية (ان)	١
٤ ـ د. فايز صايغ ، هل لليهود حق ديني بفلسطين ؟ (ف)	٥.ر.

١٤ ـ ج.هـ. جانس ، اسرائيل والدول الافرو ـ آسيوية (ع)	١
١٥ ـ هوارد كوخ (الابن) ، ست مئة يوم : تقييم المواجهة العربية ـ الاسرائيلية منذ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ (ف)	١
١٦ ـ ابراهيم العابد ، العنصرية والعسكرية والتوسع : ثلاث نزعات اساسية لدولة اسرائيل (ف)	١
١٧ ـ د. فايز صايغ ، فلسطين واسرائيل والسلام (ع ، ان ، ف)	١
١٨ ـ د. انيس صايغ ، الجهل بالقضية الفلسطينية (ع)	١
١٩ ـ روحي الخطيب ، تهويد القدس (ان)	١
٢٠ ـ ابراهيم العابد ، اسرائيل والمفاوضات (ان)	١
٢١ ـ خيرية قاسمية ، العلم الفلسطيني (ع)	١
٢٢ ـ د. اسعد رزوق ، آراء جيمس باركس المتحيزة (ان)	١
٢٣ ـ باسم سرحان ، اطفال الفلسطينيين : « جيل التحرير » (ان)	١

رابعا ـ سلسلة اليوميات الفلسطينية :

٩ ـ المجلد التاسع ١/١ ـ ١٩٦٩/٦/٣٠	١٠
١٠ ـ المجلد العاشر ٧/١ ـ ١٩٦٩/١٢/٣١	١٠

خامسا ـ سلسلة حقائق وارقام :

٣٣ ـ د. انيس صايغ (محرر) وغازي دانيال ، رجال السياسة الاسرائيليون (ع)	٤
٣٤ ـ سامي هداوي، احصاءات الاراضي والملكية في فلسطين ١٩٤٥ (ان)	١٠
٣٥ ـ اهداف حركة المقاومة الفلسطينية تجاه اليهود (ان)	٥٠ ر.

السعر لل

سادسا ـ سلسلة خرائط وصور فلسطينية :

٤ ـ خرائط فلسطينية (ع ، ان)	١٠
٥ ـ خرق اتفاقيات جنيف المعقودة عام ١٩٤٩ (ان ، ف ، اس)	١٠
٦ ـ عماد شحادة ، داود وجليات (ان)	١٠

ع = عربي ان = انجليزي

ف = فرنسي اس = اسباني

هـ = هولندي

منظمة التحرير الفلسطينية
مركز الابحاث

شارع كولومباني المتفرع من شارع السادات

اسس في شباط (فبراير) ١٩٦٥

تصدر عنه

(١) سلسلة « اليوميات الفلسطينية »

(٢) سلسلة « حقائق وارقام »

(٣) سلسلة « ابحاث فلسطينية »

(٤) سلسلة « دراسات فلسطينية »

(٥) سلسلة « كتب فلسطينية »

(٦) خرائط وصور فلسطينية

(٧) سلسلة « نشرات خاصة »

السعر ليرة لبنانية او ما يعادلها